الدرس الأول

حالة العرب قبل البعثة :

كانتِ الوثنيةُ هي الديانة السائدة لدى العرب ، وبسبب اعتناقهم للوثنية المخالفة للدين القويم ؛ سميت فترتهم بالجاهلية. وكان من أشهر الأصنام التي يعبدونها من دون الله: اللات ، والعزى ، ومناة ، وهُبل ، لكن وُجد بين العرب من اعتنق اليهودية ، أو النصرانية ، أو المجوسية ، ووجد بينهم أفرادٌ قلةٌ ظلوا متمسكين بالحنيفية ، ملة إبراهيم عليه السلام.

أما الحياة الاقتصادية ، فكانت البادية تعتمد اعتمادًا كليًّا على الثروة الحيوانية المعتمدة على الرعي ، وكان عمادُ الحياة الاقتصاديةِ لدى الحاضرة الزراعة والتجارة ، وقُبيل ظهور الإسلام كانت مكة أعظم بلدة تجارية في جزيرة العرب ، كما كان هناك حضارة عمرانية في أماكن متعددة كالمدينة والطائف ، أما من الناحية الاجتماعية ، فقد كان الظلم منتشرًا بشكل كبير ، لا حقَّ للضعيف فيهم ، توأد البنات، وتنتهك الحرمات ، ويأكل القوي حق الضعيف ، يعددون الزوجات من غير حد ، والزنا منتشر ، والحروب بين القبائل تقع لأتفه الأسباب ، حتى بين أبناء القبيلة الواحدة.

تلك كانت لمحة سريعة عن واقع الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام.

ابن الذبيحين: كانت قريش تُفاخر عبدالمطلب جد النبي - ﷺ - بالذرية والغِنَى ؛ فنذر عبدالمطلب لئن رزقه الله عشرةً من البنين الذكور ليذبحن واحدًا منهم تقربًا للآلهة. وتم له ما أراد ، فرُزق عشرة ذكور ، كان أحدُهم عبدالله والد النبي ﷺ ، فلما أراد عبدالمطلب تنفيذ النذر ، عمل قرعة بين أبنائه ، فخرجت على عبدالله ، فلما أراد ذبحه ، قام الناس في وجهه ليمنعوه حتى لا يكون ذلك في الناس سُنَّة ، ثم اتفقوا على القرعة بين عبدالله وعشرة من الإبل تكون له فداء ، فلما عملوا القرعة ، خرجت على عبدالله ، فضاعفوا عدد الإبل ، فخرجت عليه مرة أخرى ، فأخذوا يزيدون في عدد الإبل ، وكانت القرعة دائمًا تخرج على عبدالله ، حتى بلغ عدد الإبل مئة ، فخرجت القرعة على الإبل ، فذبحها عبدالمطلب وافتدى ابنه عبدالله بها.

ولقد كان عبدالله أحب أبناء عبدالمطلب إلى قلبه ، خصوصًا بعد الفداء ، وعندما كبر عبدالله ، اختار له والده فتاة من بني زُهرة تدعى آمنة بنت وهب ، فزوجه إياها ، وحملت آمنة ، وبعد ثلاثة أشهر من حَمْل آمنة ، خرج عبدالله مع قافلة تجارية إلى الشام ، وفي طريق العودة وقع فريسة المرض ؛ فأقام في المدينة عند أخواله من بني النجار ، وهناك وافاه الأجل ودُفِن.

تمت أشهر الحمل ، وولد - ﷺ - يوم الاثنين ، لكن ليس هناك تحديد مؤكد لليوم والشهر الذي ولد فيه ﷺ ، فقيل: إنه ولد في التاسع من ربيع الأول ، وقيل: في الثاني عشر ، وقيل: في رمضان ، وقيل: غير ذلك ، وكان ذلك في عام ٥٧١ للميلاد ، وهو العام الذي يسمى عام الفيل.

الدرس الثاني

قصة الفيل: وذلك أن أبرهة الحبشي نائب النجاشي على اليمن ، لما رأى العرب يحجون الكعبةَ في مكة ،ويعظمونها ، ويَفِدون إليها من أماكن بعيدة ؛ بنى كنيسة كبيرة في صنعاء ؛ ليصرف الحجاج العرب إليها. وسمع بذلك رجل من بني كنانة (إحدى قبائل العرب) فدخلها ليلًا ولطخ جدرانها بالعَذِرَة. ولما علم أبرهة بذلك ثار وغضب ، وجهز جيشًا ضخمًا قوامه ستون ألف رجل ، معهم تسعة من الفيلة ، وسار بهم إلى مكة ليهدم الكعبة ، واختار لنفسه فيلًا من أكبر الفيلة ، ولما بلغ قريبًا من مكة ، هيأ جيشه واستعد لدخول مكة ، لكن الفيل بَرَكَ ولم يتقدم ، وكانوا كلَّما وجهوه إلى الجهات الأخرى قام يهرول ، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك ، فبينا هم كذلك ، أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة صغيرة أوقد عليها في نار جهنم ، وكان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار ، حجرًا في منقاره ، وحجرين في رجليه أمثال الحُمُّص ، لا تصيب منهم أحدًا إلا أخذت أعضاؤه تتقطع وتتفتت ، حتى يهلك. فخرجوا هاربين يتساقطون في الطريق ، أما أبرهة ، فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وقد بلغ به الأذى كل مبلغ ، حيث مات هناك. وأما قريش فكانوا قد تفرقوا في الشعاب ، واحتموا بالجبال ؛ خوفًا على أنفسهم من ذلك الجيش ، فلما نزل بالجيش ما نزل ؛ رجعوا إلى بيوتهم آمنين. وكانت هذه الوقعة قبل مولد النبي - ﷺ - بخمسين يومًا.

رضاعة النبي ﷺ :

لما وُلِد النبي - ﷺ - أرضعته ثويبة مولاة عمه أبي لهب ، وكانت قد أرضعت قبله عمه حمزة بن عبدالمطلب ؛ ولذلك فإن حمزة - رضي الله عنه - يكون أخًا للنبي - ﷺ - من الرضاعة ؛ ولما كان من عادة العرب أنهم يلتمسون لأولادهم المراضع من أهل البادية ؛ حيث تتوافر لهم أسباب النشأة البدنية السليمة ؛ فقد انتقل النبي - ﷺ - إلى مرضعة أخرى ، ففي تلك الفترة التي ولد فيها محمد ﷺ ، وصل إلى مكة جماعة من نساء بادية بني سعد بحثًا عن أطفال يتولين إرضاعهم ، وراحت النسوة يطفن البيوت ، وكن جميعًا يُعرِضْن عن محمد ﷺ ؛ ليتمه وفقره. وكانت حليمة السعدية واحدة من تلك النسوة اللآتي أعرضن عنه ﷺ ، ولكنها بعد تطوافها على أكثر البيوت لم تظفر بطفل من أسرة غنية تحمله معها ، ليخفف أجرُهُ ما تعانيه من شظف العيش وشدة الفقر ، وخاصة في سنتها المجدبة تلك. فكرَّت راجعة إلى بيت آمنة راضية بالطفل اليتيم ، والأجر القليل. ولقد حضرت حليمة إلى مكة مع زوجها على أتان هزيلة ، بطيئة السير، وفي طريق العودة ، وهي تضع رسول الله - ﷺ - في حجرها ، كانت الأتان تعدو عدوًا سريعًا تُخَلِّف وراءها كل الدواب ، مما جعل رفاق الطريق يعجبون كل العجب. كما تَذْكُر حليمة أن ثديها لم يكن يُدر إلا القليل من اللبن ، وأن طفلها الرضيع كان دائم البكاء من شدة الجوع ، فلما ألقمت ثديها رسول الله - ﷺ - درَّ غزيرًا. وتُحدِّث عن جدب أرضها في ديار بني سعد ، فلما حظيت بشرف رضاعة هذا الطفل ؛ أنتجت أرضها وماشيتها ؛ وتبدل حالها كله ، من بؤس وفقر ، إلى هناء ويسر.

قضى محمد - ﷺ - سنتين في رعاية حليمة ، وكانت حريصة عليه كل الحرص، تحس من أعماقها بأشياء وأحوال غير عادية تحيط بهذا الطفل ، وبعد هذه السنتين أتت به حليمة إلى أمه وجده في مكة ، لكن حليمة التي رأت من بركته - ﷺ - ما غير حالها ؛ ألحت على آمنة أن توافق على بقائه عندها مرة ثانية ، فوافقت آمنة. وعادت حليمة إلى ديار بني سعد ومعها الطفل اليتيم ، تغمرها الفرحة ، وتحلق بها السعادة.

الدرس الثالث

شق الصدر: في ذات يوم، وكان محمد - ﷺ - قد قارب الرابعة من عمره، وبينما كان يلهو مع أخيه من الرضاع - ابن حليمة السعدية - بعيدًا عن الخيام، جاء ابن حليمة وهو يجري وعلى وجهه سِمات الفزع، وطلب من أمه أن تدرك أخاه القرشي، فسألته عن الأمر، فقال: لقد رأيت رجلين في ثياب بيض، يأخذانه من بيننا، ويضجعانه ثم يشقان صدره، وقبل أن يكمل روايته، كانت حليمة تركض نحو محمد - ﷺ - فرأته واقفًا مكانه لا يتحرك، وقد علت الصفرة وجهه، وامتقع لونه، فسألته في لهفة عما أصابه، فأخبرها أنه بخير، وحكى لها أنَّ رجلين في ثياب بيض أخذاه فشقا صدره، ثم أخرجا قلبه فاستخلصا منه علقة سوداء طرحاها، ثم غسلا القلب بماء بارد، ثم أعاداه إلى الجوف، ثم مسحا على الصدر، وغادرا المكان ثم اختفيا. عادت حليمة بمحمد إلى الخباء. ومع إطلالة فجر اليوم التالي، كانت حليمة تحمل محمدًا إلى أمه في مكة. وتعجبت آمنة من عودة حليمة في غير أوانها، برغم حرصها على الطفل، وسألتها عن السبب، فحدثتها حليمة عن حادثة شق الصدر.

خرجت آمنة بطفلها اليتيم إلى المدينة لزيارة أخواله من بني النجار، ومكثت هناك أيامًا، وفي طريق العودة إلى مكة، وافاها الأجل في مكان يسمى الأبواء، وهناك دفنت، وهنا ودع محمد - ﷺ - أمه وهو في السادسة من عمره، وكان على جده عبد المطلب أن يعوضه الكثير، فرعاه وكفله، وعطف عليه. وفي الثامنة من عمره - ﷺ - توفي جده عبدالمطلب، فكفله عمه أبو طالب رغم كثرة عياله، وقلة ماله، وعامله عمه، وكذلك زوجته كواحد من أبنائهما، ولقد تعلق الطفل اليتيم بعمه إلى حد كبير. وفي هذا الجو بدأ تكونه الأولي، ونشأ على الصدق والأمانة؛ حتى كانتا لقبًا يُعرف به، فإذا قيل حضر الأمين، أو حضر الصادق، عُرف أنه محمد ﷺ.

وبعد أن شبَّ وكبر قليلًا، بدأ في الاعتماد على نفسه في شؤون حياته، وكسب معاشه، فبدأ - عليه الصلاة والسلام - رحلة العمل والكسب، فعمل راعيًا لبعض القرشيين على أغنامهم مقابل مبلغ يسير من المال. واشترك في رحلة تجارية إلى الشام، كانت أسهمت فيها خديجة بنت خويلد بمال كثير، وخديجة هذه أرملة ثرية، وكان وكيلها على مالها في تلك الرحلة ميسرة غلامها ومدبر أعمالها؛ وببركة رسول الله - ﷺ - وأمانته، ربحت تجارة خديجة ربحًا لم تعهده من قبل، فسألت غلامها ميسرة عن سبب هذا الربح العظيم، فأنبأها أنَّ محمد بن عبدالله تولى عملية العرض والبيع، ولقد أقبل الناس عليه إقبالًا كبيرًا، فكان الربح الكثير من غير ظلم، أصغت خديجة إلى غلامها ميسرة، وكانت تعرف عن محمد بن عبدالله بعض الأمور؛ فاشتد إعجابها به؛ ورغبت في الزواج منه، فأرسلت إحدى قريباتها تستطلع لها رغبته في ذلك الأمر، وكان - عليه الصلاة والسلام - قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره الشريف. فأتته المرأة تعرض عليه الزواج من خديجة فرضي بذلك. فتم الزواج، وسعُد كل واحدٍ منهما بالآخر، وأخذ محمد - ﷺ - في إدارة شؤون ثروة خديجة، وأثبت كفاءته وقدرته. ومضت السنوات، وتتابع حمل خديجة وولادتها، فكان لها من البنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، و من البنين القاسم وعبدالله وقد ماتا في صغرهما.

الدرس الرابع

النبوة: مع اقتراب سِنه الشريف من الأربعين ، كان ـ ﷺ ـ يُكثر من الوِحْدة والخلوة في غار حراء ، في جبل يقع قريبًا من مكة من الشرق ، يقضي فيه أيامًا وليالي متتابعة يَعْبُد الله . وفي ليلة الحادي والعشرين من رمضان ، وبينما هو في الغار وقد بلغ عمره أربعين عامًا ، أتاه المَلَكُ جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: اقرأ . قال: ما أنا بقارئ (أي: لا أعرف القراءة) ، فعاوده جبريل للمرة الثانية والثالثة ، وفي الثالثة قال له: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق:١-٥] ، ثم انصرف عنه ، ولم يُطق رسول الله ـ ﷺ ـ البقاء في غار حراء ، فعاد إلى بيته ، ودخل على زوجته خديجة يرجف فؤاده ، فقال: « زملوني ، زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فأخبر خديجة بما حصل له ، ثم قال: « لقد خشيت على نفسي » ، فقالت خديجة: كلا ، والله لا يخزيك الله أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتُكسب المعدوم ، وتَقْري الضيف ، وتُعين على نوائب الحق[1] .

وبعد فترة قصيرة ، عاد النبي ـ ﷺ ـ إلى غار حراء ليواصل تعبده فيه ، فلما انتهى من عبادته ، نزل من الغار ليعود إلى مكة ، فلما صار في بطن الوادي ، جاءه جبريل جالسًا على كرسي بين السماء والأرض ، وأوحى إليه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر:١-٥] ، ثم استمر الوحي وتتابع بعد ذلك.

لما بدأ النبي ـ ﷺ ـ دعوته ، لبّت الزوجة الفاضلة نداء الإيمان ، فشهدت لله بالوحدانية ، ولزوجها الكريم بالنبوة ، فكانت أول من أسلم ، وحدَّث رسول الله ـ ﷺ ـ صديقه الحميم أبا بكر ، فآمن وصَدَّق بلا تردد ، ولقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ وفاء منه لعمه أبي طالب الذي كفله ورعاه بعد أمه وجده ، قد استخلص من أبناء عمه عليًّا يربيه عنده ، وينفق عليه ، وفي هذا الجو فتح عليٌّ قلبه فآمن ، ثم بعد ذلك تبعهم زيد بن حارثة مولى خديجة.

استمر النبي ـ ﷺ ـ في الدعوة السرية ، وكان المسلمون يخفون إسلامهم ؛ لأنه إذا ما اكتُشف أمر واحدٍ منهم تعرض لأقسى صنوف العذاب من كفار قريش ليردوه عن الإسلام.

---

١ – تحمل الكل : أي تساعد الذي لا يستطيع أن يستقل بأمره ، وتكسب المعدوم: أي تعطي الذي ليس عنده شيء ، وتقري الضيف : أي تكرم الضيف ، وتُعين على نوائب الحق: أي على مصائب الدنيا.

الدرس الخامس

الدعوة الجهرية: بعد أن قضى رسول الله - ﷺ - ثلاث سنوات في الدعوة الفردية السرية ، أنزل الله: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر:٩٤] ، فقام - ﷺ - ذات يوم على الصفا ينادي أهل مكة ، فاجتمع له نفرٌ كثير ، ومن بينهم عمه أبو لهب، الذي كان من أكثر الناس عداوة لله ولرسوله. فلما اجتمع إليه الناس قال: «أرأيتم إنْ أنبأتكم أن وراء هذا الجبل عدوًا يتربص بكم ، أمصدقيَّ أنتم؟» فقالوا: ما عهدنا فيك إلا الصدق والأمانة ، فقال: «إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد» ثم راح رسول الله - ﷺ - يدعوهم إلى الله ونبذ ما هم فيه من عبادة الأصنام ، وانتفض أبو لهب من بين القوم فقال: تبًّا لك ، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله فيه سورة تتلى إلى يوم القيامة: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [المسد:١ -٥] .

واستمر النبي - ﷺ - في دعوته ، وبدأ يجهر بها في أماكن تجمعات الناس ، وكان يصلي عند الكعبة ، ويحضر مجامع الناس ، و يأتي المشركين في أسواقهم ليدعوهم إلى الإسلام ؛ وقد تعرض للأذى الكثير ، كما زاد أذى الكفار لمن أسلم معه ، من ذلك ما حصل لياسر وسُمَيَّة وولدهما عمار ، إذ مات الأبوان شهيدين من شدة العذاب ، وكانت سُمَيَّة أول شهيدة في الإسلام ، وتعرض بلال بن رباح الحبشي للعذاب الشديد على يد أمية بن خلف و أبي جهل ، وكان بلال قد دخل في الإسلام عن طريق أبي بكر ، فلما علم به سيده أمية بن خلف ، استعمل معه جميع وسائل التعذيب من أجل أن يترك الإسلام ، إلا أنه أبى وتمسك بدينه. فكان أمية يأخذه إلى خارج مكة مقيدًا بالسلاسل ، ويضع على صدره الصخرة العظيمة ، بعد أن يمدده على الرمال اللاهبة ، ثم ينهال عليه ضربًا بالسياط هو وأتباعه ، وبلال يردد: أحدٌ أحد ، حتى مر عليه أبو بكر - رضي الله عنه - وهو على تلك الحال ، فاشتراه من أمية ، وأعتقه حرًّا في سبيل الله.

لقد كان من الحكمة مع وجود هذه الاضطهادات أن يمنع رسول الله - ﷺ - المسلمين من إعلان إسلامهم ، كما كان يجتمع بهم سرًّا ؛ لأنه لو اجتمع بهم علنًا ، حال المشركون بينه وبين ما يريد من تعليمهم وإرشادهم ، وربما أدى ذلك إلى مصادمة بين الفريقين ، ومعلوم أن المصادمة قد تؤدي إلى تدمير المسلمين وإبادتهم ؛ لقلة عددهم وعدتهم ؛ فكان من الحكمة الاختفاء ، أما رسول الله - ﷺ - فكان يجهر بالدعوة والعبادة بين ظهراني المشركين ، برغم ما يناله - ﷺ - من الأذى من كفار قريش.

الدرس السادس

الهجرة إلى الحبشة: وبسبب استمرار المشركين في تعذيب من يُكتشف إسلامه ، خصوصًا الضعاف منهم ؛ طلب الصحابة إلى الرسول - ﷺ - أن يهاجروا بدينهم إلى الحبشة عند النجاشي ، الذي سيجدون عنده الأمن ، خصوصًا أنَّ كثيرًا من المسلمين قد خشوا على أنفسهم وأهليهم من قريش فأذن لهم ، وكان ذلك في السنة الخامسة من البعثة ، فهاجر من المسلمين قُرابة السبعين بأهليهم ، وكان من بينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ ، ولقد حاول القرشيون إفساد مقامهم في الحبشة ؛ فأرسلوا الهدايا إلى الملك ، وطلبوا إليه أن يسلمهم أولئك الهاربين ، وقالوا له: إن المسلمين يسبون عيسى - عليه السلام - وأمه ، فلما سألهم النجاشي عن ذلك أوضحوا له ما يقوله القرآن عن عيسى - عليه السلام - وبينوا له الحق ، وقرؤوا عليه سورة مريم ، فأمَّنَهم ورفض تسليمهم إلى قريش ، وآمن وأعلن إسلامه.

في رمضان من السنة نفسها ، خرج النبي - ﷺ - إلى الناس في الحرم ، فقام فيهم ، وأخذ يتلو سورة النجم ، وكان هناك جمعٌ كبيرٌ من قريش ، ولم يكن هؤلاء الكفار قد سمعوا كلام الله من قبل ، بسبب أسلوبهم المتواصل بالتواصي بألا يسمعوا من الرسول - ﷺ - شيئًا ، فلما باغتهم بتلاوة هذه السورة ، وقرع آذانهم ذلك الكلام الإلهي الخلاب ، بقي كلُ واحدٍ منهم مصغيًا إليه ، لا يخطر بباله شيء سواه ، حتى إذا قرأ: ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم:٦٢] ، سجد ، فلم يتمالكوا أنفسهم فخروا جميعًا ساجدين.

استمرت قريش في محاربة دعوة النبي ﷺ ، واتبعت في ذلك أساليب عديدة ، عذبت ، واضطهدت ، وهدَّدت ، وأغْرَت ، لكن كل ذلك لم يؤدِّ إلا إلى مزيد من التمسك بدين الإسلام ، وزيادة في عدد المؤمنين.

ثم ها هم يستخدمون أسلوبًا جديدًا في محاربة الإسلام ، وذلك بأن كتبوا صحيفة وقعوا عليها جميعًا ، وعلقوها في داخل الكعبة ، تعاهدوا فيها على مقاطعة المسلمين وبني هاشم ، مقاطعة كلية ، فلا يكون معهم بيع ولا شراء ، ولا زواج ، ولا تعاون ، ولا تعامل. واضطُر المسلمون إلى الخروج من مكة إلى شعب من شعابها يسمى (شعب أبي طالب) ، وهناك عانى المسلمون معاناةً شديدةً ، وقاسوا أصنافًا من الجوع والشدة ، وبذل القادرون منهم جُلَّ أموالهم ، حتى أنفقت خديجة - رضي الله عنها - كل مالها. وتفَشَّت فيهم الأمراض ، وأشرف معظمهم على الهلاك ، لكنهم صمدوا ، وصبروا ، وما تراجع منهم أحد ، ودام الحصار ثلاثة أعوام ، حتى قام نفرٌ من رجالات قريش البارزين - ممن تربطهم ببعض بني هاشم قرابة - قاموا بنقض ما في الصحيفة وأعلنوا ذلك على الملأ ، فلما استخرجوا الصحيفة وجدوا أن الأرضة قد أكلتها ، ولم يبق منها إلا عبارة: «باسمك اللهم» وانفرجت الأزمة، وعاد المسلمون وبنو هاشم إلى مكة ، لكن قريشًا ظلَّت على موقفها الظالم في محاربة المسلمين.

الدرس السابع

عام الحزن: بدأ المرض الشديد يدبُّ في أنحاء جسم أبي طالب ، عم النبي - ﷺ - ويبقيه طريح الفراش ، وما هو إلا وقت يسير فإذا به يعاني سكرات الموت ، ورسول الله - ﷺ - عند رأسه يرجوه أن يقول: "لا إله إلا الله" قبل أن يموت ، لكن جلساء السوء الذين كانوا عنده ، وعلى رأسهم أبو جهل يمنعونه ، ويقولون له: أتترك دين آبائك وأجدادك ، أترغب عن ملة عبدالمطلب ، ويستمرون به حتى مات على الشرك ، فكان حزن الرسول - ﷺ - على عمه مضاعفًا حيث مات كافرًا. وبعد قرابة شهرين من وفاة أبي طالب ، توفيت خديجة رضي الله عنها ، فحزن عليها الرسول الكريم - ﷺ - حزنًا شديدًا. واشتد البلاء على رسول الله - ﷺ - من قومه بعد وفاة عمه أبي طالب ، وزوجه خديجة رضي الله عنها.

الرسول - ﷺ - في الطائف: تمادت قريش في طغيانها وتسلطها وإيذائها للمسلمين ؛ ففكر الرسول - ﷺ - في الذهاب إلى الطائف لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام. والرحلة إلى الطائف ليست بالأمر الهين لصعوبة الطريق بسبب الجبال العالية المحيطة بها ، ولكن كان استقبال أهل الطائف للنبي - ﷺ - وردهم إيَّاه قبيحًا ، فلم يستمعوا إليه ، بل طردوه وأغروا به صبيانهم ؛ فقذفوه بالحجارة حتى أدموا عقبيه، فعاد أدراجه قاصدًا مكة، وهو كئيب حزين ، فجاءه جبريل ومعه ملَك الجبال ، فناداه جبريل عليه السلام: ((إن الله بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت)) ، فقال ملك الجبال: ((يا محمد ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين [وهما جبلان محيطان بمكة])) ، فقال ﷺ: ((بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا)) ، وهذا من عظيم صبره ﷺ ، ورحمته بقومه ، برغم الأذى الشديد الذي ناله منهم.

انشقاق القمر: كان من جملة جدال المشركين لرسول الله - ﷺ - أنهم كانوا يطلبون منه المعجزات كي يثبت صحة رسالته ، وقد تكرر ذلك منهم مرارًا. فقد سألوه مرة أن يشُقَّ لهم القمر نصفين ، فسأل ربه ذلك ، فأراهم القمر قد انشق فرقتين ، ورأت قريش هذه الآية لوقت طويل ، لكنهم لم يؤمنوا ، بل قالوا: لقد سحرنا محمد ، فقال رجلٌ: إن كان سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فانتظروا به السُّفار ، فلما جاء بعض من سافر سألوهم ، فقالوا: نعم قد رأيناه ، ولكن قريشًا مع ذلك أصرُّوا على كفرهم.

الدرس الثامن

الإسراء والمعراج: بعد عودة الرسول ـ ﷺ ـ من الطائف وما حصل له فيها ، وبعد أن توفي أبو طالب ، ولحقت به خديجة رضي الله عنها ، ومع اشتداد أذى قريش للمسلمين ؛ اجتمعت الهموم على قلب النبي ﷺ ؛ فجاءت المواساة لهذا النبي الكريم من ربه، ففي إحدى الليالي وبينما كان رسول الله ـ ﷺ ـ نائمًا جاءه جبريل بالبراق ، وهو دابة تشبه الفرس ، لها جناحان ، سريعة العدو كالبرق ، فأركبه عليه ، ثم مضى به إلى بيت المقدس في فلسطين ، ثم من هناك عَرَج به إلى السماء ، ورأى من آيات ربه الشيء الكثير ، وفي السماء فُرضت عليه الصلوات الخمس ، وعاد ـ ﷺ ـ في الليلة نفسها إلى مكة المكرمة منشرح البال ، راسخ اليقين ، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء:١] ، فلما أصبح ذهب إلى الكعبة ، وأخذ يُحدِّثُ الناس بما حصل له ، فاشتد تكذيب الكفار له ، واستهزاؤهم به ، ثم سأله بعض الحاضرين أن يصف لهم بيت المقدس ، وذلك من باب التعجيز فأخذ يصفه لهم جزءًا جزءًا ، ولم يكتفِ المشركون بهذه التساؤلات بل قالوا نريد دليلاً آخر ، فقال ـ ﷺ ـ لقد لقيت في الطريق قافلة آتية صوب مكة ووصفها لهم ، وأخبرهم بعدد جِمالها ووقت قدومها، وصدق رسول الله ﷺ ، لكن الكافرين ضلّوا على كفرهم وعنادهم وعدم التصديق. وفي صبيحة يوم الإسراء جاء جبريل وعلم الرسول ـ ﷺ ـ كيفية الصلوات الخمس وأوقاتها ، وكانت الصلاة قبل ذلك ركعتين في الصباح ، وركعتين في المساء.

في تلك الفترة ، قصر رسول الله ـ ﷺ ـ دعوته على القادمين إلى مكة ، بعد أن لجَّت قريش في نفورها عن الحق ، فكان ـ ﷺ ـ يلقى الناس في رحالهم ومواقع نزولهم يعرض عليهم الإسلام ، ويشرحه لهم ، وكان عمه أبو لهب يتبعه ويحذر الناس منه ومن دعوته. وفي ذات مرة أتى إلى جماعةٌ من أهل المدينة ، فدعاهم ، فاستمعوا إليه ثم أجمعوا على اتِّباعه والإيمان به ، وكان أهل المدينة يسمعون من اليهود أن نبيًّا سيُبعث قد قرب زمانه ، فلما دعاهم عرفوا أنه النبي الذي تذكره اليهود ؛ فأسرعوا إلى الإسلام ، وقالوا لا تسبقكم اليهود إلى ذلك. وكانوا ستة أشخاص ، وفي العام التالي قدم ، من المدينة اثنا عشر رجلًا ، فاجتمعوا برسول الله ﷺ ، فعلمهم الإسلام ، ولما رجعوا إلى المدينة أرسل معهم مصعب بن عمير ؛ ليعلمهم القرآن ؛ ويبين لهم أحكام الدين. وقد استطاع مصعب بن عمير ـ بتوفيق الله ـ أن يؤثر في مجتمع المدينة ، فلما عاد إلى مكة بعد سنة كان معه من أهل المدينة اثنان وسبعون رجلاً وامرأتان ، فاجتمع بهم النبي ـ ﷺ ـ فعاهدوه على نصرة دينه والقيام بأمره ، ثم عادوا إلى المدينة.

الدرس التاسع

مقر الدعوة الجديد: أصبحت المدينة ملاذًا آمنًا للحق وأهله ؛ فبدأت هجرة المسلمين إليها ، غير أن قريشًا عزمت على منع المسلمين من الهجرة ، فلقي بعض المهاجرين صنوفًا من الأذى والعذاب. وكان المسلمون يهاجرون سرًّا خوفًا من قريش ، أما أبو بكر الصديق ﷺ ، فقد كان يستأذن رسول الله ـ ﷺ ـ في الهجرة ، فيقول له: ((لا تعجل ، لعل الله يجعل لك صاحبًا)) حتى هاجر أكثر المسلمين.

جُنَّ جنون قريش لما رأوا هجرة المسلمين وتجمعهم في المدينة ، وخافوا من علو شأن محمد ودعوته، فتشاوروا في الأمر ، ثم اتفقوا على قتل الرسول ﷺ ، وقال أبو جهل: أرى أن نعطي شابًا جلدًا من كل قبيلة منا سيفًا ، فيحيطوا بمحمد ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه في القبائل ؛ ولا يقوى بنو هاشم بعد هذا على معاداة كل الناس. ولقد أطْلَع الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه الكريم على المؤامرة ؛ فاتفق مع أبي بكر على الهجرة بعد أن أذن الله له بذلك ، وفي الليل طلب النبي ـ ﷺ ـ إلى علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ؛ ليُوهِمَ الناس أنه ما زال في البيت.

جاء المتآمرون وطوقوا البيت ، ورأوا عليًّا في الفراش ، فظنوه محمدًا ـ ﷺ ـ فأخذوا ينتظرون خروجه ؛ لينقضوا عليه ويقتلوه. وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ من بينهم وهم مطوِّقُون البيت ، فَذَرَّ التراب على رؤوسهم ؛ فأخذ الله أبصارهم ، فلم يشعروا به ﷺ ، ومضى إلى أبي بكر ، وخرجا معًا نحو المدينة ، واختفيا في غار ثور . أما قريش فبقي فتيانها منتظرين حتى أصبحوا ، فلما أصبحوا قام عليٌّ من فراش رسول الله ـ ﷺ ـ فسُقط في أيديهم ، وسألوه عن رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يخبرهم بشيء فضربوه وسحبوه ، لكن دون جدوى. ثم أرسلت قريشٌ الطلب في كل جهة ، وجعلوا مئة ناقة لمن يأتي بمحمد ـ ﷺ ـ حيًّا أو ميتًا ، ووصل الطلب إلى باب الغار الذي يختبئ فيه النبي ـ ﷺ ـ وصاحبه ، حتى لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه لرآهما ، فاشتد حزن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : ((ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما. لا تحزن إن الله معنا)) ، لكن القوم لم يروهما. مكث النبي ـ ﷺ ـ وصاحبه في الغار ثلاثة أيام ، ثم انطلقا إلى المدينة ، وكان الطريق طويلًا ، والشمس حارقة ، وفي مساء اليوم الثاني ، مرا بخيمة امرأة يقال لها أم معبد ، فطلبا منها الطعام و الشراب ، فلما يجدا عندها شيئًا ، إلا شاة هزيلة أقعدها الضعف عن الذهاب إلى المرعى، ولم يكن بها قطرة لبن ، فقام إليها رسول الله ﷺ ، فمسح ضرعها فدرَّ الحليب ، ثم حلبها وملأ إناء كبيرًا ؛ فوقفت أم معبد مذهولة مما رأت ، فشرب الجميع حتى ارتووا ، ثم حلب ثانية وملأ الإناء وتركه عند أم معبد وواصل سيره.

كان أهل المدينة يترقبون وصول النبي ـ ﷺ ـ وينتظرونه كل يوم خارج المدينة ، فلما كان يوم وصوله أقبلوا إليه فرحين مرحبين ، ونزل في قباء على مشارف المدينة ، ومكث فيها أربعة أيام ، أسس فيها مسجد قباء ، وهو أول مسجد بُنِيَ في الإسلام ، وفي اليوم الخامس ، سار إلى المدينة ، وحاول كثيرٌ من الأنصار أن يفوزوا برسول الله ـ ﷺ ـ ويشرفوا بضيافته عندهم ، فكانوا يُمسكون بزمام ناقته ، فيشكرهم ويقول : ((دعوها فإنها مأمورة)) ، فلما وصلت الناقة إلى حيث أمرها الله بركت ، فلم ينزل عنها ، فنهضت وسارت قليلًا ، ثم التفتت ورجعت ، فبركت في موضعها الأول فنزل عنها وكان ذلك موضع المسجد النبوي. ونزل النبي ـ ﷺ ـ عند أبي أيوب الأنصاري ﷺ.

أما علي بن أبي طالب ﷺ ، فمكث في مكة ثلاثة أيام بعد النبي ﷺ ، رد خلالها الأمانات التي كانت عند النبي ـ ﷺ ـ إلى أصحابها ، ثم خرج إلى المدينة ولحق بالنبي ـ ﷺ ـ في قباء.

الدرس العاشر

النبي - ﷺ - في المدينة:

بنى الرسول - ﷺ - مسجده في المكان الذي بركت فيه الناقة، بعدما اشتراه من أصحابه، وآخى بين المهاجرين (وهم أصحابه الذين قدموا معه من مكة) والأنصار (وهم من نصروهم من أهل المدينة) بأن جعل لكل واحد من الأنصار أخًا من المهاجرين يشترك معه في ماله، وبدأ المهاجرون والأنصار يعملون معًا، وازدادت روابط الأُخُوة بينهم.

كان لقريش صلة بيهود المدينة، فكانوا يحاولون عن طريقهم إثارة الاضطراب والفرقة بين المسلمين، وكانت قريش أيضًا تهدد المسلمين وتتوعدهم بالقضاء عليهم، وهكذا أحاط الخطر بالمسلمين من الداخل والخارج، ووصل الأمر أنَّ الصحابة لم يكونوا يبيتون إلا ومعهم السلاح. وفي هذه الأوضاع الشديدة أنزل الله الإذن بالقتال؛ فأخذ الرسول - ﷺ - يرتب البعوث العسكرية لاستكشاف تحركات العدو، وكذلك التعرض لقوافلهم التجارية من أجل الضغط عليهم وإشعارهم بقوة المسلمين، حتى يسالموا ويتركوا لهم الحرية في نشر الإسلام والعمل به، كما قام النبي - ﷺ - بعقد المواثيق والتحالف مع بعض القبائل.

معركة بدر الكبرى: عقد الرسول - ﷺ - العزم مرةً على اعتراض إحدى قوافل قريش التجارية القادمة من الشام، فخرج بثلاثمائة وثلاثة عشر رجلًا، ولم يكن معهم سوى فرسين وسبعون بعيرًا فقط. وكانت قافلة قريش مكونة من ألف بعير، وكان يقودها أبو سفيان ومعه أربعون رجلًا، لكن أبا سفيان علم بخروج المسلمين؛ فأرسل إلى مكة يخبرهم بالأمر، ويطلب إليهم المساعدة، وغيَّر طريقه وذهب من طريق آخر، فلم يظفر بهم المسلمون، أما قريشًا، فقد خرجوا بجيش قِوامه ألف مقاتل، إلا أنه أتاهم رسولٌ من أبي سفيان يخبرهم بنجاة القافلة، ويطلب إليهم الرجوع إلى مكة، فرفض أبو جهل العودة، وواصلوا سيرهم.

لما علم الرسول - ﷺ - بخروج قريش، استشار أصحابه، فاتفق الجميع على لقاء الكفار ومقاتلتهم، وفي صباح اليوم السابع عشر من رمضان، للسنة الثانية من الهجرة، تقابل الفريقان وتقاتلوا قتالًا شديدًا، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وقُتل منهم أربعة عشر شهيدًا. أما المشركون فقد قُتل منهم سبعون رجلاً وأُسر سبعونَ آخرون. وفي أثناء المعركة توفيت رقية بنت الرسول - ﷺ - زوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث بقي زوجها معها في المدينة ولم يخرج إلى تلك الغزوة؛ بناءً على طلب الرسول - ﷺ - إليه أن يبقى مع زوجته المريضة. وبعد المعركة زوَّج الرسول - ﷺ - عثمان ابنته الثانية أم كلثوم، ولهذا فهو يلقب بذي النورين؛ لأنه تزوج اثنتين من بنات الرسول ﷺ.

بعد معركة بدر، عاد المسلمون إلى المدينة فرحين بنصر الله، ومعهم الأسرى والغنائم. أما الأسرى فمنهم من فدى نفسه، ومنهم من أُطلق سراحه بدون فداء، ومنهم من كانت فديته تعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة.

الدرس الحادي عشر

معركة أحد: وقعت هذه المعركة بين المسلمين وكفار مكة بعد سنة من وقوع غزوة بدر ، حيث عزم المشركون على الانتقام من المسلمين بعد هزيمتهم في معركة بدر ، فخرجوا بثلاثة آلاف مقاتل ، وقابلهم المسلمون بحوالي سبع مئة رجل ، وقد انتصر المسلمون في أول الأمر وتغلبوا على الكفار ، وفر المشركون هاربين إلى مكة ، لكنهم رجعوا مرة أخرى وانقضوا على المسلمين من جهة الجبل بعد أن أخل الرماة بالخطة التي رسمها لهم رسول الله ـ ﷺ ـ ونزلوا من فوق الجبل لجمع الغنائم ، فمالت كفة المشركين في هذه المعركة .

غزوة الخندق: بعد معركة أحد ، ذهب نفرٌ من اليهود إلى أهل مكة ، وحرضوهم على غزو المسلمين في المدينة ، ووعدوهم بالنصر والتأييد ، فاستجابوا لهم ، ثم حرضت اليهود قبائل أخرى على غزو المسلمين فاستجابوا لهم كذلك. فأخذ المشركون يتجهون نحو المدينة من كل مكان ، حتى اجتمع حولها حوالي عشرة آلاف مقاتل.

كان النبي ـ ﷺ ـ قد علم بتحركات الأعداء ، فاستشار أصحابه في الأمر ، فأشار عليه سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ بحفر خندق حول المدينة ، في الجهة التي ليس فيها جبال ، وشارك المسلمون في حفر الخندق ؛ حتى تم بسرعة ، وبقي المشركون معسكرين في خارج المدينة قرابة شهر ، لا يستطيعون اقتحام الخندق ، ثم أرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ريحًا شديدةً على الكفار اقتلعت خيامهم ؛ فأصابهم الخوف وارتحلوا بسرعة ، عائدين إلى بلادهم ، وهزم الله الأحزاب وحده ، ونصر المسلمين .

فتح مكة: في السنة الثامنة من الهجرة ، قرر الرسول ـ ﷺ ـ غزو مكة وفتحها، فخرج في العاشر من رمضان بعشرة آلاف مقاتل ، ودخل مكة بلا قتال ، حيث استسلمت قريش ، ونصر الله المسلمين ، وتوجه النبي ـ ﷺ ـ إلى المسجد الحرام ، فطاف بالكعبة ، ثم صلى ركعتين بداخلها ، وبعد ذلك كسَّر جميع الأصنام التي كانت بداخلها وفوقها ، ثم وقف على باب الكعبة وقريش تحته عند بابها ينتظرون ماذا يصنع بهم ، فقال النبي ﷺ: ((يا معشر قريش، ماذا ترون أني فاعل بكم؟)) قالوا: خيرًا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم. قال: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء)) ، فضرب الرسول ـ ﷺ ـ أعظم مثال في العفو عن أعدائه الذين عذبوا أصحابه وآذوهم ، وأخرجوه من بلده.

بعد فتح مكة ، دخل الناس في دين الله أفواجًا ، ففي السنة العاشرة من الهجرة ، حج الرسول ـ ﷺ ـ وكانت الحجة الوحيدة له ﷺ ، وقد حج معه أكثر من مئة ألف شخص ، وبعد الحج ، عاد النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة.

الدرس الثاني عشر

الوفود ومكاتبة الملوك: ظهر أمر النبي ﷺ ، وانتشرت دعوته ؛ فبدأت الوفود تأتي إلى المدينة من كل مكان يعلنون دخولهم في دين الإسلام .

كما أخذ النبي - ﷺ - بمراسلة الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ، فمنهم من استجاب وآمن ، ومنهم من رد ردًّا جميلًا ، وأرسل الهدايا لكنه لم يسلم ، ومنهم من غضب ومزق كتاب النبي ﷺ ، كما فعل كسرى ملك الفرس الذي مزق كتاب النبي ﷺ ؛ فدعا عليه النبي - ﷺ - وقال: « اللهم مزق ملكه » ؛ فلم يمض وقت قصير حتى ثار عليه ابنه ، فقتله ، وأخذ الملك منه.

أما المقوقس ملك مصر ، فإنه لم يسلم ، ولكنه أكرم رسول النبي ﷺ ، وأرسل معه الهدايا للنبي ﷺ ، وكذلك فعل قيصر الروم ، فقد رد ردًّا طيبًا ، وأكرم رسول النبي - ﷺ - وأعطاه الهدايا.

أما المنذر بن ساوى ، حاكم البحرين ، فإنه لما وصله كتاب النبي - ﷺ - قرأه على أهل البحرين ، فمنهم من آمن ، ومنهم من رفض.

وفاة النبي ﷺ:

بعد حوالي شهرين ونصف من عودته - ﷺ - من الحج ، بدأ به المرض ، وأخذ يشتد عليه يومًا بعد يوم ، ولما عجز عن إمامة الناس في الصلاة ؛ طلب من أبي بكر الصديق أن يصلي بالناس .

وفي يوم الاثنين ، الثاني عشر من ربيع الأول ، من السنة الحادية عشرة للهجرة ، انتقل الرسول - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى ، وقد تم له ثلاث وستون سنة ، ووصل الخبر إلى الصحابة فكادوا يفقدون وعيهم ، ولم يصدقوا الخبر ، حتى قام فيهم أبو بكر الصديق خطيبًا يهدئهم ويبين لهم أن الرسول - ﷺ - بشرٌ ، وأنه يموت كما يموت البشر ؛ فهدأ الناس ، وتم تغسيل الرسول - ﷺ - وكفن ودفن في حجرة زوجته عائشة رضي الله عنها.

وقد عاش الرسول - ﷺ - في مكة أربعين سنة قبل النبوة ، وثلاث عشرة سنة بعد النبوة ، وعاش عشر سنوات في المدينة بعد النبوة.

بعد وفاة الرسول - ﷺ - أجمع المسلمون على اختيار أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - خليفة للمسلمين ، فكان أول الخلفاء الراشدين .

الدرس الثالث عشر

صفات النبي - ﷺ - الخَلْقية: كان رسول الله - ﷺ - وسطًا ، فلم يكن بالطويل البائن ، ولا بالقصير. بعيد ما بين المنكبين ، متناسب الأعضاء ، رحب الصدر ، وكان أحسن الناس وجهًا ، أبيَض مشربًا بحمرة ، مستدير الوجه ، أكحل العينين ، دقيق الأنف ، حسن الفم ، كث اللحية. وكان طَيِّب الرائحة ، ليِّن الملمس ، قال عنه أنس بن مالك رضي الله عنه: (ما شممت عنبرًا ، ولا مسكًا ، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا لامست يدي شيئًا قطُّ ألين ملمسًا من يد رسول الله ﷺ.)

وكان طلق الوجه ، دائم التبسم ، حَسن الصوت ، قليل الكلام . قال عنه أنس بن مالك رضي الله عنه: (كان أحسن الناس ، وكان أجود الناس ، وكان أشجع الناس) .

من أخلاق الرسول ﷺ: كان رسول الله - ﷺ - أشجع الناس ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (كنا إذا اشتد البأس، ولقي القومُ القومَ ، اتقينا برسول الله ﷺ) ، وكان أسخى الناس ، ما سُئل شيئًا قطُّ فقال: لا . وكان أحلم الناس ، وكان لا ينتقم لنفسه ، ولا يغضب لها ، إلا أن تُنتهك حُرُمَات الله ، فيكون لله ينتقم ، كما أنَّ القريب والبعيد ، والقوي والضعيف عنده في الحق سواء ، وقد أكَّد أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، وأن الناس سواسية ، وأن سبب هلاك الأمم السابقة أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وقال: ((والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)).

ولم يكن يعيب طعامًا قطُّ ، إن اشتهاه أكله ، وإن لم يشتهه تركه ، وكان يأتي على آل محمد الشهر والشهران لا يوقد في بيتهم نار ، وإنما كان قوتهم التمر والماء ، وكان يَعْصِبُ على بطنه الحجر والحجرين من الجوع ، وكان يخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويساعد أهله في عمل البيت ، وكان يعود المرضى ، وكان أشدُّ الناس تواضعًا ، يجيب من دعاه من غني أو فقير ، أو دني أو شريف ، وكان يحب المساكين ، ويشهد جنائزهم، ويعود مرضاهم ، لا يحقر فقيرًا لفقره ، ولا يهاب ملكًا لملكه. وكان يركب الفرس والبعير والحمار والبغل.

وكان أكثر الناس تبسمًا ، وأحسنهم بشرًا ، مع كثرة ما يصيبه من الأحزان والمصائب ، وكان يُحب الطِّيب ، ويكره الرائحة الكريهة ، وقد جمع الله له كمال الأخلاق ، ومحاسن الأفعال ، وقد آتاه الله - تعالى - من العلم ما لم يُؤت أحدًا من الأولين والآخرين ، وهو أمِّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، ولا معلم له من البشر ، جاء بهذا القرآن من عند الله ، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] ، وفي نشأته - ﷺ - أميًّا قطعٌ للطريق على المكذبين أنه كتب القرآن ، أو تعلمه ، أو قرأه من مصادر الأولين.

الدرس الرابع عشر

من معجزاته ﷺ : إنَّ أعظم معجزاته - ﷺ - هو القرآن الكريم ، المعجزة الباقية إلى قيام الساعة ، الذي أعجز الفصحاء ، وأدهش البلغاء ، وتحدى الله الجميع أن يأتوا بعشر سور من مثله ، أو يأتوا بسورة ، أو حتى يأتوا بآية من مثله ، وقد شهد المشركون بإعجازه.

ومن معجزاته : حين سأله المشركون يومًا أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر ، فانشق القمر حتى صار فرقتين ، ونَبْعُ الماء من بين أصابعه مراتٍ عديدةٍ ، وتسبيح الحصا في كفه ، ثم وضعه في كف أبي بكر ، ثم عمر، ثم عثمان ، فسبح.

وكانوا يسمعون تسبيح الطعام عنده وهو يؤكل ، وتسليم الحجر والشجر عليه ، وتكليم ذراع الشاة المسمومة الذي أهدته إياه اليهودية تريد قتله بالسم ، وسأله أعرابي أن يريه آية ، فأمر شجرة ، فجاءت إليه ، ثم أمرها فرجعت إلى مكانها ، ومسح ضرع شاة ليس فيه حليب فاجتمع فيه الحليب فحلب وشرب وسقى أبا بكر ، وتفل في عيني علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو أرمد ، فبرأ من ساعته ، وأصيبت رجل أحد الصحابة، فمسحها فبرأت من حينها ، ودعا لأنس بن مالك بطول العمر وكثرة المال والولد ، وأن يبارك الله له فيه ، فوُلِد له مئة وعشرون ولدًا ، وكان نخله يحمل في السنة مرتين ، والمعروف في النخل أنه يحمل مرة واحدة في السنة ، وعاش مئة وعشرين سنة ، وشكى إليه أحد الصحابة القحط وهو على المنبر ، فرفع يديه يدعو الله - عز وجل - وما في السماء سحابة ، فثار السحاب أمثال الجبال ، وهطل مطر غزير إلى الجمعة الأخرى ، حتى شُكي إليه من كثرة المطر ، فدعا الله - عز وجل - فتوقف المطر ، وخرج الناس يمشون في الشمس.

وأطعم أهل الخندق وهم ألف من صاع شعير وشاة ، فشبعوا وانصرفوا والطعام لم ينقص منه شيء ، وكذلك أطعم جميع أهل الخندق من تمر يسير أتت به ابنة بشير بن سعد لأبيها وخالها ، وأطعم الجيش من مزودة أبي هريرة حتى شبعوا ، وخرج على مئة رجلٍ من قريش وهم ينتظرونه ليقتلوه ، فحثا في وجوههم التراب ، ومضى ولم يروه ، وتبعه سُراقة بن مالك ليقتله ، فلما اقترب منه ، دعا عليه فغاصت أقدام فرسه في الأرض.

الدرس الخامس عشر

مواقف وعبر من سيرته ﷺ:

مزاحه ﷺ : لقد كان النبي - ﷺ - يمازح أصحابه ، لكنه لا يقول إلا حقًّا ، وكان يداعب أهله ، ويعتني بصغار السن ، ويجعل لهم جزءًا من وقته ، ويعاملهم بما يطيقون ويفهمون ، فقد كان يمازح خادمه أنس ابن مالك - رضي الله عنه - فربما قال له أحيانًا: « يا ذا الأذنين » .

وجاء إليه رجل فقال : يا رسول الله احملني. فقال له النبي - ﷺ - مازحًا: « إنا حاملوك على ولد ناقة » قال : وما أصنع بولد الناقة ؟ فقال النبي ﷺ: « وهل تلد الإبل إلا النوق » وكان - ﷺ - دائم التبسم والبِشر في وجوه أصحابه ، لا يسمعون منه إلا الكلام الطيب ، فعن جرير - رضي الله عنه - قال : (ما حجبني النبي - ﷺ - منذ أسلمت ، ولا رآني إلا تبسم في وجهي ، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل ، فضرب بيده في صدري ، وقال: « اللهم ثبته ، واجعله هاديًا مهديًا » ؛ فما وقعت عن فرس بعد).

كما كان - ﷺ - يمازح أقاربه ، فقد جاء إلى بيت ابنته فاطمة فلم يجد زوجها عليٌ في البيت ، فقال: « أين هو ؟ » قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج ، فجاءه رسول الله - ﷺ - وهو مضطجع في المسجد ، قد سقط عنه رداؤه ؛ فأصابه تراب ، فجعل رسول الله - ﷺ - يمسحه عنه وهو يقول: « قم أبا التراب ، قم أبا التراب» .

تعامله مع الصغار ﷺ : وقد كان للصغار نصيب وافر من خلقه العظيم ، فقد كان يسابق زوجته عائشة - رضي الله عنها - ويقر لعبها مع صواحبها ، فعنها - رضي الله عنها - قالت : (كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ ، وكان لي صواحب يلعبن معي ، فكان رسول الله - ﷺ - إذا دخل اختفين منه فيرسلهن إليّ فيلعبن معي) .

كما كان يعتني بالصغار ويداعبهم ، ويتلطف معهم ، فعن عبد الله بن شداد عن أبيه قال : (خرج علينا رسول الله - ﷺ - في إحدى صلاتي العشاء ، وهو حامل حسنًا ، أو حسينًا ، فتقدم رسول - ﷺ - فوضعه ، ثم كبر للصلاة ، فصلى ، فسجد سجدة فأطالها ، قال أبي: فرفعت رأسي ، وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ ، وهو ساجد ، فرجعت إلى سجودي ، فلما قضى رسول الله - ﷺ - الصلاة قال الناس : يا رسول الله إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر ، أو أنه يوحى إليك ، قال : « كل ذلك لم يكن ، ولكن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته » . وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : (كان النبي - ﷺ - أحسن الناس خلقًا ، وكان يقول لأخ لي صغير : « يا أبا عمير ، ما فعل النُغَير؟ » ، والنغير طائر صغير كان يلعب به ذلك الطفل ، وفي هذا الموقف تسلية لهذا الصغير .

الدرس السادس عشر

معاملته لأهله ﷺ :

أما معاملته ـ ﷺ ـ لأهله فقد جمعت مكارم الأخلاق ، فقد كان ـ ﷺ ـ متواضعًا ، يكون دائمًا في حاجة أهله ، وكان يقدِّر مكانة المرأة كإنسان ، وأم ، وزوجة ، وابنة ، سأله رجل فقال : من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال : ((أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك)) ، وقال : ((من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله)) .

وكان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا شربت زوجته من الإناء أخذه ، فوضع فمه في موضع فمها، وشرب . وكان يقول: ((خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي)).

رحمته ﷺ : أما عن صفة الرحمة ، فقد قال ﷺ: ((الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)) ، ونبينا الكريم ـ ﷺ ـ له النصيب الأوفر من هذا الخلق العظيم ، ويظهر ذلك واضحًا جليًّا في مواقفه مع الجميع ، من صغير ، أو كبير ، ومن قريب ، أو بعيد ، ومن مظاهر شفقته ورحمته ﷺ ، أنه كان يخفف في صلاته ولا يطيلها عند سماع بكاء صبي ، فعن أبي قتادة ﵁ ، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ((إني لأقوم في الصلاة أريد أنْ أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجوز في صلاتي ، كراهية أنْ أشقَّ على أمه)) .

ومن رحمته بأمَّته ، وحرصه على أن يدخلوا في دين الله ، أنه مرض غلام يهودي كان يخدم النبي ـ ﷺ ـ فأتاه يعوده ، فقعد عند رأسه ، فقال له : أسلم ، فنظر الغلام إلى أبيه الذي كان واقفًا عند رأسه ، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم . فأسلم الغلام ، ثم ما لبث أن مات. فخرج النبي ـ ﷺ ـ من عنده وهو يقول : ((الحمد لله الذي أنقذه من النار)) .

الدرس السابع عشر

صبره ﷺ : وأما الحديث عن صبره عليه الصلاة والسلام ، فحياته -ﷺ- كلها صبر ومصابرة ، وجهاد ومجاهدة ، ولم يزل -عليه الصلاة والسلام- في صبر ومصابرة ، وعمل متواصل منذ أن نزلت عليه أول آية ، وحتى آخر لحظة في حياته . ولقد عرف رسول الله -ﷺ- طبيعة ما سيلقاه في هذا الطريق ، من اللحظة الأولى لبعثته ، وبعد أول لقاء بالمَلَكِ ، حين ذهبت به خديجة -رضي الله عنها- إلى ورقة بن نوفل ، فقال له ورقة : يا ليتني كنت حيًا إذ يخرجك قومك ، فقال له عليه الصلاة والسلام : «أو مخرجي هم ؟» قال : نعم ، فإنه لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عودي . فوطن نفسه منذ البداية على تحمل المشاقِّ ، والإيذاء ، والكيد ، والعداوة .

ومن المواقف التي يتجلَّى فيها صبره -عليه الصلاة والسلام- ما تعرض له من أذى جسدي من قومه وأهله وعشيرته وهو بمكة يبلغ رسالة ربه ، ومن ذلك ما جاء عند البخاري ، أن عروة بن الزبير سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ ؟ فقال : (بينا النبي -ﷺ- يصلي في حجر الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله ؟) .

وفي يوم من الأيام كان -ﷺ- يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس ، فقال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم فجاء به ، فانتظر حتى سجد النبي -ﷺ- فوضعه على ظهره بين كتفيه ، فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض ، ورسول الله -ﷺ- ساجد لا يرفع رأسه ، حتى جاءته ابنته فاطمة فطرحت عن ظهره الأذى .

وأشد من ذلك ، الأذى النفسي المتمثِّل في ردِّ دعوته وتكذيبه ، واتهامه أنه كاهن ، وشاعر ، ومجنون ، وساحر ، وادعاء أن ما أتى به من آيات ما هي إلا أساطير الأولين ، ومن ذلك ما قاله أبو جهل مستهزئا : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) .

وكان عمه أبو لهب يتبَعه حين يذهب إلى مجامع الناس وأسواقهم ليدعوهم ، فيكذِّبه وينهاهم عن تصديقه ، بينما كانت امرأته أم جميل تجمع الحطب والشوك وتلقيه في طريقه .

و قد بلغ الأذى قمته عندما حُوصر - ﷺ - مع أصحابه ثلاث سنوات في شعب أبي طالب ، حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الجوع ، وتزداد عليه الأحزان حين يفقد زوجته خديجة التي كانت تسليه وتعينه ، ، ثم يفاجأ بموت عمه الذي كان يحوطه ويدافع عنه ، ويُضاعف من حزنه أنه مات على الكفر ، ثم يخرج من بلده مهاجرًا بعد عدة محاولات لقتله ، وفي المدينة يبدأ عهدًا جديدًا من الصبر والتضحية ، وحياة فيها الكثير من الجهد والشدة ، حتى جاع وافتقر ، وربط على بطنه الحجر ، يقول ﷺ : « قد أُخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما يُؤذى أحد ، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ، ومالي ولبلال طعامٌ يأكله ذو كبد ، إلا شيء يواريه إبط بلال » .

وقد اتُّهم في عرضه ، ولحقه الأذى من المنافقين وجهلة الأعراب ، بل روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : قسَّم رسول الله - ﷺ - قسمة ، فقال رجل من الأنصار : والله ما أراد محمد بهذا وجه الله ، قال ابن مسعود : فأتيت رسول الله - ﷺ - فأخبرته ، فتمعر وجهه وقال: « رحم الله موسى ، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » .

ومن المواطن التي صبر فيها النبي ﷺ ، أيام موت أولاده وبناته ، حيث كان له من الذرية سبعةٌ ، توالى موتهم واحدًا تلو الآخر ، حتى لم يبق منهم إلا فاطمة رضي الله عنها ، فما وهن ولا لان ، ولكن صبر صبرًا جميلًا ، حتى أُثر عنه يوم موت ولده إبراهيم قوله: «إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

ولم يكن صبر النبي - ﷺ - مقتصرًا على الأذى والابتلاء ، بل شمل صبره على طاعة الله - سبحانه وتعالى - حيث أمره ربه بذلك ، فكان يجتهد في العبادة والطاعة حتى تتفطّر قدماه من طول القيام ، ويكثر من الصيام والذكر وغيرها من العبادات ، وإذا سئل عن ذلك ، كان يقول: « أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟ ».

الدرس الثامن عشر

زهده ﷺ : لا يَصْدُق أن يطلق وصف الزهد فعليًا إلا على من تيسر له أمر من الأمور ، فأعرض عنه وتركه زهداً فيه ، وقد كان نبينا ـ ﷺ ـ أزهد الناس في الدنيا ، وأقلهم رغبة فيها ، مكتفيًا منها بالبلاغ ، راضيًا فيها بحياة الشظف ، مع أن الدنيا كانت بين يديه ، ومع أنه أكرم الخلق على الله ، ولو شاء لوهبه الله ما يشاء من الأموال والنعم.

وقد ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره عن خيثمة أنه قيل للنبي ﷺ: إن شئت أن نعطيك من خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيًا قبلك ، ولا نعطي أحدًا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ، فقال : ((اجمعوها لي في الآخرة)).

وأما حياته ـ ﷺ ـ ومعيشته فعجب من العجب ، يقول أبو ذر رضي الله عنه : (كنت أمشي مع النبي ـ ﷺ ـ في حرَّة المدينة ، فاستقبلَنا جبل أحدٌ ، فقال : ((ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبًا ، تمضي علي ثلاثة وعندي منه دينار ، إلا شيئًا أرصده لدين ، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه)) ، وكان يقول : ((ما لي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها)) .

طعامه ولباسه ﷺ : أما طعامه ، فقد كان يمر عليه الشهر ، والشهران ، والثلاثة وما توقد في بيته ـ ﷺ ـ نار ، وإنما هما الأسودان : التمر والماء ، وربما ظل يومه يتلوى من شدة الجوع وما يجد ما يملأ به بطنه ، وكان أكثر خبزه من الشعير ، وما أُثر عنه ـ ﷺ ـ أنه أكل خبزًا مرققًا أبدًا ، بل إن خادمه أنس ـ رضي الله عنه ـ ذكر أنه لم يجتمع عنده ـ ﷺ ـ غداء ولا عشاء من خبزٍ ولحم إلا حين يأتيه الضيوف .

ولم يكن حاله في لباسه بأقل مما سبق ، فقد شهد له أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بزهده وعدم تكلُّفه في لباسه ، وهو القادر على أن يتَّخذ من الثياب أغلاها ، يقول أحد الصحابة واصفاً لباسه : أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ أكلِّمه في شيء فإذا هو قاعد وعليه إزار قطن غليظ .

ودخل أبو بردة ـ رضي الله عنه ـ إلى عائشة أم المؤمنين ، فأخرجت كساءً ملبدًا وإزارًا غليظًا ، ثم قالت: (قُبض رسول الله ـ ﷺ ـ في هذين الثوبين) ، وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: (كنت أمشي مع رسول الله ـ ﷺ ـ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية).

ولم يترك ـ ﷺ ـ عند موته درهمًا ، ولا دينارًا ، ولا عبدًا ، ولا أمة ، ولا شيئًا ، إلا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضًا جعلها صدقة ، قالت عائشة رضي الله عنها : (توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وما في رفِّي من شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير) ، ومات ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودرعه مرهونة عند يهودي مقابل شيءٍ من الشعير .

الدرس التاسع عشر

عدله ﷺ : أما العدل فهو عدل في تعامله مع ربه جل وعلا ، وعدل في تعامله مع نفسه ، وعدل في تعامله مع أزواجه ، وعدل في تعامله مع الآخرين ، من قريب أو بعيد ، ومن صاحب أو صديق ، ومن موافق أو مخالف ، حتى العدو المكابر ، له نصيب من عدله ﷺ ، يعترض عليه قوم ، ويخطئ في حقه أناس ، فلا يتخلى عن العدل ، والعدل ملازم للرسول ـ ﷺ ـ في حله وترحاله ، فهو يكره التميز على أصحابه ، بل يحب العدل والمساواة ، وتحمل المشاق والمتاعب مثلهم ، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : (كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير ، وكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ ، قال : فلما جاء دور رسول الله ﷺ ، قالا : نحن نمشي وتركب أنت ، فقال : ((ما أنتما بأقوى مني ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)) .

وبينما كان أُسيد بن حضير يُمازح القوم و يضحكهم ، طعنه النبي ـ ﷺ ـ في خاصرته بعود ، فقال أسيد : أوجعتني ، فدعني اقتص منك ، فقال : ((اقتص)) ، قال أسيد : إن عليك قميصًا ، وليس علي قميص ، فرفع النبي ـ ﷺ ـ عن قميصه ، فاحتضنه أسيد وجعل يقبل ما بين الخاصرة والضلع ، وقال : إنما أردت هذا يا رسول الله .

وكان ـ ﷺ ـ لا يرضى تعطيل حدود الله التي شرعها ـ سبحانه وتعالى ـ لإقامة العدل بين الناس ، ولو كان الجاني من أقربائه وأحبابه ، ففي حادثة المرأة المخزومية التي سرقت لم يقبل شفاعة أسامة ، وقال مقالته المشهورة : ((أيها الناس ، إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيـم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)) .

الدرس العشرون

قالوا عن محمد ﷺ:

فيما يلي مقتطفات من أقوال بعض الفلاسفة والمستشرقين الغربيين في حق النبي محمد ﷺ، تبين اعترافهم بعظمة هذا النبي الكريم، وبنبوته، وصفاته الحميدة، وحقيقة ما جاء به، بعيدًا عن التعصب، ونشر الأباطيل التي يروجها بعض أعداء الإسلام:

يقول الإنجليزي برنارد شو في كتابه: (محمد)، الذي أحرقته السلطة البريطانية: (إن العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال؛ فإنه أقدر الأديان على هضم جميع المدنيات، خالدًا خلود الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في قارة أوروبا).

ويقول: (إنَّ رجال الدين في القرون الوسطى، وبسبب الجهل أو التعصُّب، قد رسموا لدين محمدٍ صورةً قاتمة، لقد كانوا يعدونه عدوًّا للمسيحية، لكنَّني اطَّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يُسمى منقذ البشرية، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم، لوفِّق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها.

ويقول الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل، الحائز على جائزة نوبل، يقول في كتابه: الأبطال: (لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد في هذا العصر، أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خدَّاع مزوِّر.

إنه لابد لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة؛ فإن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرسول، ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا، لنحو مئتي مليون من الناس، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟).

ويقول الفيلسوف الهندوكي راما كرشنا راؤ: حينما ظهر محمد، لم تكن الجزيرة العربية شيئًا مذكورًا، ومن هذه الصحراء التي لم تكن شيئًا مذكورًا، استطاع محمد بروحه العظيمة، أن ينشئ منها عالمًا جديدًا، وحياة جديدة، وثقافة جديدة، وحضارة جديدة، ومملكة جديدة امتدت من مراكش إلى شبه القارة الهندية، واستطاع أن يؤثر في فكر وحياة ثلاث قارات هي: آسيا، وإفريقيا، وأوروبا.

ويقول المستشرق الكندي زويمر: (إن محمدًا كان ولا شك ، من أعظم القادة الدينيين ، ويصدق عليه القول : إنه كان مصلحًا قديرًا ، وبليغًا فصيحًا ، وجريئًا مغوارًا ، ومفكرًا عظيمًا ، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات ، وهذا قرآنه الذي جاء به ، وسيرته يشهدان بصحة هذا الادعاء).

ويقول السير وليام موير الانجليزي: (إن محمدًا - نبي المسلمين - لُقب بالأمين من صغره بإجماع أهل بلده ؛ لشرف أخلاقه ؛ وحسن سلوكه ، ومهما يكن هناك من أمر ، فإن محمدًا أسمى من أن ينتهي إليه الواصف ، ولا يعرف قدره من جهله ، والخبير به من أمعن النظر في تاريخه المجيد ، ذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل ومفكري العالم).

ويقول: (لقد امتاز محمد بوضوح كلامه ، ويسر دينه ، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يَعهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس ، وأحيا الأخلاق ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل نبي الإسلام محمد).

ويقول الروائي والفيلسوف الروسي الكبير تولستوي: (يكفي محمدًا فخرًا : أنه خلَّص أمة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة ، وفتح في وجوههم طريق الرُّقي والتقدم ، إنَّ شريعة محمدٍ ستسود العالم ؛ لانسجامها مع العقل والحكمة).

ويقول النمساوي شبرك: (إنَّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها ؛ إذ إنه برغم أُمِّيته ؛ استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أنْ يأتي بتشريع ، سنكونُ نحنُ الأوروبيين أسعد ما نكون ، إذا توصلنا إلى قمته).